وظائف العبيد والإماء أمام الفتن والبلاء (٦)

حسن الظن بالله تعالى (٣)

عباد الله ما زلنا مع وظائف العبيد والإماء أمام الفتن والبلاء، وقد تكلمنا في الخطب الماضية عن آثار المعاصي وكيف نتخلص منها، وعن التوبة، وعن حسن الظن بالله، واليوم بإذن الله نكمل هذا الأمر.

ومن أهم مواطن حسن الظن بالله: عند الدعاء، وقد بيّن الرسول ﷺ أن الدعاء هو العبادة[١]، ويبين ﷻ أن الدعاء والعبادة يحل كل منهما محل الأخر يقول تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨ – ٤٩]، ومن لطف ربنا أنه يغضب إن لم تسأله وتدعوه كما يبين ذلك رسول الله ﷺ، يقول القائل:

الرَّبُّ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[٢]، فإذا دعوت الله أيها المؤمن؛ فعظم الرغبة فيما عنده، وأحسن الظن به.

وإني لأدعو الله حتى كأنني ... أرى بجميل الظن ما الله صانعُه

وعلى المسلم أن يحسن الظن بالله في الدعاء لعلمه أنه هو اللطيف، فقد أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَإِنَّمَا أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ**»[٣]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**ما ألهم الله سبحانه عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه**»[٤].

عباد الله، مشكلتنا ليست في عدم الدعاء، لكنها في حسن الظن في الدعاء

قال أحمد بن أبي الحواري: «**سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ، –وَوَقَفْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَرَانِي فَسَمِعْتُهُ– يَقُولُ: "لَئِنْ طَالَبْتَنِي بِذُنُوبِي لَأُطَالِبَنَّكَ بِعَفْوِكَ، وَلَئِنْ طَالَبْتَنِي بِتَوْبَتِي لَأُطَالِبَنَّكَ بِسَخَائِكَ، وَلَئِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ لَأُخْبِرَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَنِّي أُحِبُّكَ**»[٥].

وأسوق لحضراتكم بعض الأمثلة القديمة والحديثة لتبين لنا كيف يكون حسن الظن بالله تعالى مقترنا بالدعاء:

- فها هو سيدنا يعقوب عليه السلام، كان حسن الظن بالله، فمع أن أبناءه أتوه بقميص عليه دم ليوهموه بأن يوسف قد مات، كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨]، وطالت بهم القصة، وكما حكى القرآن أن سيدنا يعقوب قال لهم:

---

[١] أخرجه الإمام أبو داود في سننه (١٤٧٩)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الإمام أبي داود (١٤٧٩).

[٢] أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله في سننه (٣٤٧٩)، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الإمام الترمذي رحمه الله (٣٤٧٩).

[٣] مجموع الفتاوى (١٩٣/٨)، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

[٤] إحياء علوم الدين (٣١٣/١)، للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله.

[٥] شعب الإيمان (٣٤٨/٢)، للإمام البيهقي رحمه الله.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[يوسف: ٩٤ – ٩٦]، ومعنى قوله تعالى ﴿ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي: أحسن ظني بالله، وأعلم أنه هو اللطيف.

● وهذه قصة رجل من دمياط، ليس وليا أو نحو ذلك، يقول: كنت رجلا مصابا بشلل نصفي كامل، وسافرت لندن وأمريكا ولكن لم يفد، وأجلس منذ سنوات على الكرسي، وفي يوم فتحت التلفاز، فإذا الناس يكبرون ويستعدون للحج، فقلت: أريد أن أذهب إلى بيت الله، وأنا على يقين أن الملك لن يخيبني، فسافرت ودخلت الكعبة على الكرسي، فنزلوا إلى الصحن وتركوني ساعة كاملة وأنا أصرخ وأبكي بكلمتين: والله ما أنا راجع ولا طالع من بيتك إلا على رجلي أو إلى المقابر، ويكرر: أنا في بيتك، فأصابني الصداع ونمت، ورأيت هاتفا يقول مرات عديدة: قم امش، فاستيقظت ومشيت إلى باب الكعبة، وتذكرت أني كنت مشلولا، وقلت: يا ملك، ما خيبت من لجأ إليك.

عبد الله:

متى تسلط عليك المرهوب، أو عز عليك المرغوب؛

فأحسن الظن بالله بأن توقن أنه على كل شيء قدير، وأنه هو الرحيم، وأحسن الظن بالله كذلك في أوقات استجابة الدعاء، وهي:

1. الدعاء عند الأذان.
2. الدعاء بين الأذان والإقامة.
3. الدعاء دبر الصلوات الخمس المفروضة.
4. الدعاء ساعة الإجابة يوم الجمعة.
5. الدعاء في جوف الليل.
6. الدعاء في الساعة المبهمة في الليل.
7. من قال آمين بعد قراءة الإمام.
8. الدعاء حال السجود.
9. الدعاء عند ختم القرآن.
10. الدعاء في مكة المكرمة.
11. دعاء الصائم حين يفطر.
12. دعاء الحاج والمعتمر خاصة يوم عرفة.
13. الدعاء عند التحام الجيوش.
14. الدعاء عندما يأوي المرء إلى فراشه طاهرًا ويأخذ يذكر الله تعالى حتى يدركه النعاس.
15. دعاء من تعار من الليل نام واستيقظ من الليل.
16. الدعاء تحت المطر.
17. دعاء المسافر في غير معصية.
18. دعاء الوالد لولده أو على ولده.
19. الدعاء للمسلم بظهر الغيب دون أن يَعلم أخوه.
20. من فرج على معسر.
21. دعاء المظلوم.
22. من يمجد، ويحمد، ويصلي على النبي ﷺ.
23. من كان يحسن الدعاء في الرخاء.
24. من لم يعجل في الدعاء.
25. دعاء المضطر.

فلا تسئ الظن بالله يا عبد الله، **فمن سوء الظن بالله:**

- أن ييأس العبد ويقنط من رحمة الله ويغلب عذاب الله.
- أن يعتقد بأن الله يخلف وعده في إثابة المطيع وقبول عمله.
- أن يعتقد أن ربه يعامل الصالحين معاملة المسيئين فلا يعدل مع العباد.
- أن يدعو الداعي ربه كثيرا فلا يجاب له فيسيء الظن بربه وينقطع عن الدعاء، ولو علم أن الله ربما منع عنه شرا في الدنيا أو ادخر له خيرا في الآخرة بدعائه لما تعجل في الظن، ففي مسند أحمد من حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**»[1].
- ومن سوء الظن بحكمة الله أن يعمل الرجل بالتقوى واتباع الشرع، فيبتلى ويمنع من الدنيا، ويرى أهل المعصية قد بسط لهم في الرزق وعجلت لهم طيباتهم، فيسيء الظن بربه، ويترك العمل الصالح، ويطيع الشيطان، ولو علم أن الله قضى عليه ذلك لحكمة، وأنه لا تلازم بين التقوى وبسط الرزق، وأن الله اختار لنبيه الفقر، وأن عطاء الله في الآخرة أعظم؛ لما أساء الظن بربه.

واعلموا عباد الله أن ثمة فرق بين حسن الظن والغرور: فحسن الظن الذي يثيب الله عليه هو الذي يحمل على أمرين: فعل الصالحات، وترك المنكرات، وأما أن يدعي أحد أنه يحسن الظن بربه وهو سائر في غيِّه، منهمك في المعصية، تارك للفضائل والخيرات، فهذا عبد تسلَّط الشيطان عليه.

قال ابن القيم رحمه الله: «**وَقَدْ تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ، وَأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنْ حَمَلَ عَلَى الْعَمَلِ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، وَسَاقَ إِلَيْهِ، فَهُوَ صَحِيحٌ، وَإِنْ دَعَا إِلَى الْبِطَالَةِ وَالِانْهِمَاكِ فِي الْمَعَاصِي فَهُوَ غُرُورٌ، وَحُسْنُ الظَّنِّ هُوَ الرَّجَاءُ، فَمَنْ كَانَ رَجَاؤُهُ هَادِيًا لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ، زَاجِرًا لَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَهُوَ رَجَاءٌ صَحِيحٌ، وَمَنْ كَانَتْ بِطَالَتُهُ رَجَاءً، وَرَجَاؤُهُ بِطَالَةً وَتَفْرِيطًا، فَهُوَ الْمَغْرُورُ**»[2].

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: «**وإحسان الظن بالله لا بد معه من تجنُّب المعاصي، وإلا كان أمنًا من مكر الله، فحسن الظن بالله مع فعل الأسباب الجالبة للخير وترك الأسباب الجالبة للشر هو الرجاء المحمود، وأما حسن الظن بالله مع ترك الواجبات وفعل المحرمات فهو الرجاء المذموم، وهو الأمن من مكر الله**».

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨** ﴾ [البقرة: ٢١٨]، والآن نعلم مدى فهم الحسن البصري عندما قال: «**لَيْسَ الْإِيمَانُ بالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ، إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمْ أماني المغفرة حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ، وَقَالُوا: نُحسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ، وَكَذَبُوا لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ بِهِ لَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ**»[3].

---

[1] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٣٤٠)، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٣٥)، واللفظ له.

[2] الداء والدواء (٣٨/١)، للإمام ابن القيم رحمه الله.

[3] البحر المحيط في التفسير (٧٥/٤)، لأبي حيان الأندلسي.

ويقول يحيى بن معاذ رحمه الله: «**مِنْ أَعْظَمِ الِاغْتِرَارِ عِنْدِي التَّمَادِي فِي الذُّنُوبِ عَلَى رَجَاءِ الْعَفْوِ مِنْ غَيْرِ نَدَامَةٍ، وَتَوَقُّعُ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِغَيْرِ طَاعَةٍ، وَانْتِظَارُ زَرْعِ الْجَنَّةِ بِبَذْرِ النَّارِ، وَطَلَبُ دَارِ الْمُطِيعِينَ بِالْمَعَاصِي، وَانْتِظَارُ الْجَزَاءِ بِغَيْرِ عَمَلٍ وَالتَّمَنِّي عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الْإِفْرَاطِ**

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ»[1].

عباد الله، فلنحسن الظن بالله، فالله الذي أعطانا الإسلام -وهو أعظم نعمة- من غير أن نسأله، فندعو الله أن يعطينا الجنة ونحن نسأله، ونوقن بأن رحمة الله على قدر تعظيم الله في قلوبنا.

عباد الله، والله لن نلقى أحدا أرحم من الله، فربنا لطيف رحيم، فنحسن الظن به، فهو الذي أرسل موسى وهارون عليهما السلام وهما نبيان كريمان إلى فرعون، وقال لهما: ﴿ **فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا** ﴾ [طه: ٤٤]، مع أن فرعون قال: ﴿ **أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات: ٢٤]، فكيف تكون رحمته بمن قال: سبحان ربي الأعلى؟!

ربِّ صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمدُ لله رب العالمين.

من أراد مشاهدة الخطب فليتابعنا على موقع جمعية الترتيل: al-tarteel.com

[1] موعظة المؤمنين (١/٢٩٠)، للقاسمي رحمه الله.